على انَّ الشائع اليوم في اعتقاد اكثر المؤمنين انَّ اقوال الاناجيل تصدق على امرأة واحدة. ولعلَّ شيوع هذا الرأي انما حصل بواسطة الوعَّاظ الذين يتَّخذون ارتداد الخاطئة وسيلةً للحضّ على التوبة التي تغيّر قلوب اعظم الخطأة فتجعل الزانية نفسها عزيزةً على الله الذي يتبرَّع على التوبة النصوح بأثمن المواهب واسبغ النعم وينسى كلّ ما اجترحهُ صاحبها من الكبائر كما غيَّر السيد المسيح قلب اللصّ اليمين وادخلهُ معهُ الفردوس يوم وفاتهِ

البرهان الصريح

في اثبات ألوهيَّة المسيح

ردًّا على مجلَّة المنار للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الرابع

ألوهيَّة المسيح في آداب حياتهِ

قد بلغ السيّد المسيح ذروة حياتهِ. انتشع النهام الذي كان يحجبهُ في الناصرة. اعلن بسموّ مقامهِ صوتُ الآب الذي جعل فيهِ كلّ مسرَّتهِ وحاول الروح القدس عليهِ على شكل الحمامة. قام يوحنَّا بالشهادة للاهوتهِ امام بني اسرائيل فتوارى من بعد اذانها كما تتوارى الكواكب لدى طلوع الشمس

فها هي ذا شمس البرّ قد برزت من وراء الافق "كالعروس الخارج من حجلته تبتهج كالجبَّار للعَدْو في السبيل من اقاصي السماء خروجها والى اقاصيها دورانها وليس من يتوارى عن حرّها" (مز ١٨: ٥—٧). وانَّما نور هذه الشمس السماويَّة وحرّها هما اللاهوت الذي كان في شخص المسيح الكريم ومهما لطَّفت الطبيعةُ الانسانيَّة نور اللاهوت وحرَّهُ فكان لا بُدَّ للالوهيَّة ان تلوح ايضاً من وراء حجاب الناسوت

فعلينا في هذا الفصل ان نعتبر سيرة السيّد المسيح وآداب حياتهِ فنبيّن ان تلك

الآداب ليست آداب انسان محض بل هي اعمال اله وفضائل تفوق على كل قدسة بشرية وتثبت كونهُ ابن الله الحيّ النازل من السماء لخلاص العالم

ان حياة الانسان لا تخلو ان تظهر في ثلاثة مظاهر اوّلاً في علاقته مع الاله ثمَّ في تصرُّفهِ مع القريب واخيراً في سلوكهِ الخاصّ واعماله الشخصيَّة فان احسنَ في هذه المواطن الثلثة ولم يخلّ فيها البتة ادرك الكمال. على انَّ البشر قلَّما يرقون اوج الكمال وان بلغوهُ لم يبلغوهُ الّا بعد النقص المتتالي وبعد المشقَّة وكدّ النفس

فألقِ بنظرك رعاكَ الله الى تاريخ البشر واستقرِ سيرة مشاهير الرجال في كلّ امَّة وكلّ بلاد لا تجد بعد البحث والتنقيب رجلاً واحداً جمع فيهِ كلّ المناقب الطيّبة دون نقص ولا عيب لا بل ترى كثيرين من اولئك المشاهير اشتهروا بسيّئاتهم اكثر منهم بصلاح اعمالهم وفضائل حياتهم. فمن يا ترى بين اولئك المبرّزين قد جمع في نفسهِ كلّ السجايا الحميدة من سموّ عقل وعلم واسع واخلاق رضيّة وكرم وشهامة واقدام ورقّة طباع فان حصل الواحد على نصيب منها عُدَّ محظوظاً. وهيهات ان ترى واحداً قد تفرَّد بشيم وخلال لا يُرى فيها ممزوجاً شيءٌ من النقص. وان خصصت بالنظر الآباء والانبياء رأيت ايضاً انَّ فضائلهم محصورة في بعض الاعمال لا تشمل كلّ صنف من الصلاح والبرّ. اذ ليس كامل الّا الله

على انَّ هذا الكمال قد اراد الله ان يُريَهُ للعالم مرَّة واحدة وذلك في شخص ابنهِ الالهيّ الذي وحدهُ بلغ منتهى الكمال فاقرَّ بهِ اعداؤهُ ولو مرغومين

اوَّل ما قصدهُ السيّد المسيح في حياتهِ ان يكون قدوةً للبشر في تُقى الله واكرام الخالق فاظهر في ناسوتهِ اسمى الفضائل التي يُسرُّ بها نظر الآب الباري. وقد سمعناهُ وهو في الثانية عشرة من عمرهِ يذكّر مريم ويوسف انَّ هذه هي دعوتهُ «ان يكون فيما هو لابيهِ» (لوقا ٢ : ٤٩). وهي الغاية التي وجّه اليها كلّ اعمال حياته أن يكرمهُ تعالى «ويبذل نفسهُ قرباناً وذبيحةً لله رائحة مَرْضيَّة» (افسس ٥ : ٢) تفوق على كلّ القرابين والذبائح المقدَّمة لله. فعن لسانهِ كان قال النبي داود (مز ٣٩ : ٧—٩ وعب ١٠ : ٧) : «ذبيحةً وتقدمةً لم تشأ ... حينئذٍ قلتُ: ها انذا آتٍ .. لاعمل بمشيئتك يا الله»

فتقدَّم السيّد المسيح لله ابيهِ كلّ قوى عقلهِ وذهنهِ ونفسهِ كأطيب المحرقات .

ولذلك تراهُ في كلّ اعمالهِ لا يطلب الّا رضى الآب واتمام مشيئتهِ كما صرّح بذلك غير مرّة فقال في انجيل يوحنّا (٨ : ٢٩) : « انيّ افعل ما يرضيهِ كلّ حين » وكذلك قال لليهود (يو ٥ : ٣٠) : « اني لستُ اطلب مشيئتي بل مشيئة الاب الذي ارسلني » . ولمّا لقيهُ تلاميذهُ مع المرأة السامريّة عند بئر يعقوب ودعوهُ ليأكل ممّا ابتاعوهُ في المدينة قال لهم (يو ٤ : ٣٢ — ٣٤) : « انّ لي طعاماً آكلهُ لستم تعرفونهُ انتم . . . انّ طعامي أن اعمل مشيئة من ارسلني وأُتمّم عملهُ » . وهذه مشيئة الآب قد جعلوا نُصب عينهِ في كلّ تصرُّفهِ حتى في ساعة نزاعهِ في بستان الزيتون حيث صرخ ثلاثًا : «لا تكن مشيئتي بل مشيئتُك» . وقد شهد بولس الرسول على تضحية المسيح مشيئتهُ لابيهِ حيث قال عنهُ (روم ١٥ : ٣) : « انّ المسيح لم يُرضِ نفسهُ »

وكما انهُ لم يطلب في كلّ اعمالهِ غير رضى الله كذلك لم يطلب مجد نفسهِ بل تمجيد الاب فقط كما قال لليهود (يو ٨ : ٥٠) : « انا لا اطلب مجدي » . وامكنهُ ان يقول بلْ الثقة في آخر حياتهِ (يو ١٧ : ٤) في صلاتهِ الى ابيهِ : « انا قد مجّدتك على الارض واتممتُ الذي اعطيتني لأعملهُ » وعلى خلاف ذلك قد بكّتَ الفريسيين ووبّخهم على قلّة ايمانهم لانهم لم يطلبوا مجد الله بل مجد الناس كما قال لهم (يو ٥ : ٤٤—٤٥) : « كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تطلبون المجد بعضكم من بعض ولا تبتغون المجد الذي من عند الله وحدهُ »

ولم ينفصل السيّد المسيح تمجيد الله عن محبّتهِ التي كان صرّح انّها اوّل الوصايا وأعظمها فعرّفها بقولهِ (متى ٢٢ : ٣٧) : « أحبب الرب الهك بكل قلبك وكلّ نفسك وبكل ذهنك » . فكانت محبّتهُ للآب محبّة ابرّ البنين واصدقهم حبًّا لأنّهُ كما قال (يو ٨ : ٥٥) كان « يعرفهُ ويحفظ كلامهُ » . وقد اظهر هذه المحبّة في كلّ ظروف حياتهِ ولا سيما لمّا طلب منهُ الآب ان يضحّي نفسهُ لاجل البشر فاجاب بطيب القلب الى وصيّتهِ وقرّر ذلك بقولهِ (يو ١٠ : ١٧—١٨) : « من اجل هذا يحبّني الآب لاني ابذل نفسي عن خرافي . هذه وصيّة قبلتُها من ابي » . ولمّا حان وقت السير الى الآلام والموت لم يستنكف عنهما بل قام وذهب الى حيث كان يعلم ان سيطلبهُ اعداؤهُ للموت فقال لتلاميذهِ (يو ١٣ : ٣٠) : « ليعلم العالم اني احبُّ الآب واني كما اوصاني الآب هكذا اعمل قوموا ننطلق من ههنا »

وهذا الحبُّ العظيم الذي اضطرم بهِ قلب السيد المسيح نحو ابيهِ هو الذي كان يدفعهُ الى ان « يعتزل في القفار ويصلّي » كما اخبر لوقا (٥ : ١٦) ومرقس (١ : ٣٥) وكثيراً ما كان « يخرج الى الجبل ليُصلّي ويقضي ليلهُ في الصلاة الى الله » كما لوقا (٦ : ١٢) ويوحنا (٦ : ١٥) وذلك على « حسب عادتهِ المألوفة » كما صرَّح بهِ لوقا (٢٢ : ٣٩)

وهذه المحبَّة نفسها لله كانت تحدو بهِ الى ان يتقدَّم كلَّ ما يؤول الى مجد الله ونشر خدمتهِ . وكان اذا رأى احداً يخلّ بذلك غار لله كما فعل لمَّا رأى الباعة والصيارفة ينتهكون لحرمة الهيكل (متى ٢١ : ١٢) « فاخرج جميع الذين يبيعون ويشترون في الهيكل وقلب موائد الصيارفة وكراسيَّ باعة الحمام وقال لهم : مكتوب بيتي بيتَ صلاةٍ يُدعى وانتم جعلتموهُ مغارةً للّصوص »

وكذلك غضب على الكتبة والفرّيسيين وانذرهم بالويلات (متى ٢٣ : ١٣— ٣٦) لأنّهم ضحّوا شريعة الله لتغليب سُنَنهم البشريَّة وللفوز باغراض شخصيَّة سافلة

وكان في ما خلا ذلك يكرم السلطة الدينيَّة ويقوم بكل فرائضها . كما كان يفعل اذا ابرأ البرص (لوقا ٥ : ١٤ و١٧ : ١٤) فكان يأمرهم بان يُروا نفوسهم للكهنة على حسب سنَّة موسى ويقرّبوا القرابين المفروضة لذلك . بل تلطَّف واجاب الى طلبة شيوخهم لمَّا سألوهُ ان يبرئ غلام قائد المئة (لو ٧ : ١—٩) وألحُّوا عليه قائلين لهُ : « انهُ يستحقُّ ان تصنع لهُ هذا لانهُ يحبُّ أمَّتنا وقد بنى لنا مجمعاً »

وكان في كلامهِ الى جمهور الشعب يأمرهم بالاصغاء الى كلام الكتبة والفرّيسيين وان كانت اعمالهم غير مطابقة لتعاليمهم وذلك لجلوسهم على كرسيّ موسى فقال (متى ٢٣ : ٢ — ٣) : « ان الكتبة والفريسيين جالسون على كرسيّ موسى مهما قالوا لكم فاحفظوهُ واعملوا بهِ واما مثل اعمالهم فلا تعملوا لأنّهم يقولون ولا يفعلون »

وقد اراد في آلامهِ ان يظهر اكرامهُ لسلطة رئيس الاحبار وذلك لمَّا استحلفهُ بالله ان يقول لهم هل هو المسيح ابن الله (متى ٢٦ : ٦٣) فاجابهُ السيّد المسيح بكل رزانة « انهُ هو » مع علمهِ بانَّ جوابهُ سيكون سبباً للحكم عليهِ بالموت

وقد ختم السيد المسيح حياتهُ باعظم دليل على قنوتهِ لعزَّة الله اذ « أسلم روحهُ

بين يدي ابيهِ » (لوقا ١٣ : ١٦) وذلك في الساعة عينها التي ضحَّاهُ الآب السماوي فداء عن آثامنا واشعرهُ ببغضهِ للخطيئة التي لبس المسيح شبهها حباً بنا حتى كاد لا ينظر اليهِ فصرخ يسوع مردِّداً آية المزامير (٢١ : ٠) : « إلهي إلهي لماذا تركتني »

فترى انَّ السيد المسيح كان قدوةً سامية للتقى ولكل الفضائل التي يستطيع الانسان ان يمارسها في خدمة إلهِ ومن ثم استحقَّ أن يؤدي لهُ الآب الشهادة على رضاهُ التامّ بهِ قائلاً « متى ٣ : ١٧) : « هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سُررتُ » . فهيهات هيهات ان ترى في العالم من جاراهُ في اكرامهِ للآب السماوي وإنجاز كلّ وصاياه حتى انهُ « لم يخلّ بنقطة واحدة من الناموس حتى اتمَّ الكلَّ » (متى ٥ : ١٨) و « من امتلائهِ نحنُ كلُّنا اخذنا » (يوحنا ١ : ١٦)

*

ذلك كان كمال ابن الله في عبادتهِ وتقاهُ وتسبيح اللاهوت . فماذا نقول الآن عن كمال اعمالهِ مع القريب فانَّ فيها من الصفات الفريدة ما لا يشقُّ غبارهُ انسان على الارض مهما عظمت درجة فضلهِ

اوَّل دليل على حبِّ السيد المسيح للبشر تجسُّدهُ ونزولهُ من السماء لاجل خلاصهم كما صرح بذلك (يو ٣ : ١٦) : « هكذا احبَّ الله العالم حتى انهُ بذل دونهم ابنهُ الوحيد » . ولم يلزم مدَّة ثلاثين سنة من حياتهِ الخمول والذلّ والطاعة والشغل الشاقّ الّا ليعلم جميع البشر ولاسيما العَمَلة ان يقدّسوا حياتهم المادّيّة واعمالهم اليوميَّة التي لا يعتبرها الناس وهي امام الله تستحقّ ثواباً عظيماً ان قدَّسها الانسان بالنيَّة الصالحة وصبر على اتعابها وبلاياها

وقد لاحت فضائل المسيح في اعين العالم خصوصاً في سني كرازتهِ ودعوته . وذلك في معاملاتهِ لكل طبقات الناس

— اختار كتلاميذهِ رجالاً اميين جهلاء يرتزق اكثرهم بالصيد والاشغال المادّيَّة فأخذ يعلّمهم ويثقّفهم ويعدُّهم الى دعوةٍ ما كانت لتخطر على بالهم . فكم قاسى من الاتعاب ليزيل اوهامهم وليُصلح نقائصهم وليبذر في قلوبهم الفضائل التي لم يألفوها فتارةً يبكّتهم على ترفُّعهم وطلبهم للرئاسة (متى ٢٠ : ٢٢ ولوقا ٢٢ : ٢٥) ويذكّرهم انهُ هو السيد جاء ليَخدُم لا ليُخدَم . وتارةً يرفع عقولهم عن المادّيات

لئلا ينصرفوا همّهم الى الأكل والشرب والملبس. (مرقس ٨ : ١٣ ومتى ٦ : ١٣) . وحيناً يردّهم عن طلب الانتقام (لوقا ٩ : ٥٤ — ٥٥) وهو في كلّ احوالهم يحتمل فظاظة طباعهم ويصبر على جهلهم وقلّة ادراكهم وفشلهم وذلك حتى آخر حياته بل بعد قيامته (مرقس ١٦ : ١٤)

اختلط مع الجموع فعُني بشؤونهم وابرأ امراضهم وشفاهم من عاهاتهم واقام موتاهم واخرج منهم الارواح النجسة واحتمل لجاجتهم اذ كانت الجماهير المجمهرة تقبل اليه من اليهودية وفلسطين والشام وفينيقية والمدن العشر وما وراء الاردن (متى ٤ : ٢٤ — ٢٥ لوقا ٦ : ١٧) فكانوا يحدقون به لينظروهُ ويسمعوا تعاليمه وربّما ملأوا البيوت التي يدخل اليها (مرقس ٢ : ٢ ولوقا ٨ : ١٩) ولا يدعون لهُ وقتاً ليأكل خبزاً (مرقس ٣ : ٢٠) وكان «كلّ من به داء يتهافت عليه ليلمسهُ» (مر ٣ : ١٠) ويزحمونهُ (مر ٥ : ٢٤) ويمسكونهُ لئلا يذهب من عندهم (لوقا ٤ : ٤٢) وهو مع كلّ ذلك حليم صبور لا يفوه بكلمة تنبئ عن ضجره او قلّة صبره بل يتمّ بالحرف ما كتب عنهُ النبي (اشعيا ٤٢ : ١ — ٣ ومتى ١٢ : ١٨ — ٢٠) : «هوذا فتاي الذي اخترتهُ حبيبي الذي سُرّت به نفسي أجعلُ روحي عليه فيخبر الامم بالحكم. لا يماري ولا يصيح ولا يسمع احدٌ صوتهُ في الشوارع قصبةً مرضوضةً لا يكسر وكتّاناً مدخناً لا يطفئ حتى يُخرج الحكم الى الغلبة» . ومن ثمَّ كان الربّ يتحنّن على الجموع القادمة لاستماعه ويبذل نفسهُ لخدمتهم . وكان اذا رآهم في البرّيّة لا يريد ان يصرفهم الى منازلهم دون طعام «لئلا يخوروا في الطريق» (مرقس ٨ : ٣) ولذلك اصطنع مرّتين تلك المعجزة العظيمة لمّا قات الوفاً من الجموع بخبزات قليلة واسماك زهيدة (متى ١٦ : ٨ — ١٠) لكنّ تحنّنهُ عليهم كان اعظم اذا رأى اسقامهم الادبيّة «كأنّهم كانوا معذّبين منطرحين مثل الخراف التي لا راعي لها» (متى ٩ : ٣٥)

وكان قلبهُ الحنون يميل خصوصاً الى الضعفاء والمكروبين فيدعوهم باللطف الدعوات التي لم يخرج مثالها من فم بشر قبلهُ فيقول (متى ١١ : ٢٨) : «تعالوا اليَّ يا جميع المتعبين والمثقلين وانا أريحكم» وكانت هذه الدعوة تشمل حتى الصغار والاحداث» فكان يضع يديه عليهم ويصلّي قائلاً : «دعوا الصبيان ولا تمنعوهم

لأنَّ لمثل هؤلاء ملكوت السماوات » (متى ١٩ : ١٣ — ١٤)

وكان حنان قلبهِ اعظم واوسع للخطأة ليجذبهم الى التوبة والاستغفار من خالقهم . والانجيل مملوء من الشواهد على رقّة قلب يسوع على هؤلاء الساكين . فمن يستطيع ان يقرأ ما ورد من ذلك في سيرة المسيح دون ان يتفطَّر قلبهُ شكرًا على رحمتهِ نحو متى العشَّار (متى ٩ : ٩ — ١٣) ونحو زكَّى رئيس الجباية (لوقا ١٩ : ١ — ١) ونحو المرأة السامريَّة (يو ٤ : ١ — ٢٧) ونحو الخاطئة الباكية عند قدميهِ (٧ : ٣٧—٤٧) . وقد صوَّر السيِّد المسيح رحمتهُ نحو الخطأة في تلك الامثال العجيبة التي تؤثر في القلوب الجلمودية عينها كمثل الخروف الضالّ والدرهم المفقود والابن الشاطر (لوقا ف ١٥) . وكان لا يخاف من لوم الفريسيين فيمتزج بالعشَّارين والخطأة ويقبل دعوتهم ليكسب ثقتهم ويصلح سيرتهم . قال لوقا (١٥ : ١—٢) : « وكان العشَّارون والخطأة يدنون منهُ ليسمعوهُ فتذمَّر الفريسيُّون والكتبة قائلين : ان هذا يقبل الخطأة ويأكل معهم » امَّا الربّ فكان يفحمهم بقولهِ (لوقا ٥ : ٣١) : « لا يحتاج العافون الى طبيب لكن ذوو الاسقام اني لم آت لادعو صدّيقين بل خطأة الى التوبة » . وبانت بهِ رحمتهُ الى ان اطلق سبيل الزانية دون ان يحكم عليها (يو ٨ : ١٠) بعد ان كشف لشُكاتها آثامهم قائلًا : « من كان منكم بلا خطيئة فليبدأ ويرجمها بحجر » لكنَّهُ اوصاها بالّا تعود تخطئ

ولم يقصر الرب حسن معاملتهِ على الصغار والخطأة بل وجَّه عنايتهُ الى كلّ النفوس حتى الفريسيين والصدوقيين وكافَّة اعدائهِ فكان لا يأنف من ان يكلمهم ويباحثهم ويكشف لهم اسرار ملكوت الله واذا دعاهُ احد منهم الى بيتهِ اجاب الى دعوته فأكل عند الفريسيين غير مرَّة (لو ٧ : ٣٦) مع كونهم كانوا يرقبونهُ ليأخذوهُ بكلمة . واذ اتى واحد منهم اليه ليلًا وهو نيقوديموس قبلهُ وأعلن لهُ باسرار ملكوت الله (يو ٣ : ١—٣٥ و١٩ : ٣٩) حتى تتلمذ لهُ كيوسف الرامي (يو ١٩ : ٣٨) . وكذلك الصدوقيُّون فانَّ السيد المسيح ردَّ ضلالهم في قيامة الموتى بكل لطف (متى ٢٢ : ٢٩) اذ رآهم جهلاء لا يدركون حقائق الايمان

ومما امتاز بهِ السيِّد المسيح في تصرُّفهِ مع الناس انهُ كان يعطي كل ذي حقّ حقَّهُ دون محاباة للوجوه ولا مراعاة للاشخاص فلا يطلب رضى الاولياء ولا فضل

الاغنياء بل يجعل نفسهُ كذا للكل ليربح الكلّ لابيهِ . كشف خبث هيرودس (لوقا ١٣ : ٣٢) وعلّم الطاعة لقيصر في ضمن الزمنيّات (متى ٢٢ : ٢١) دعا ارباب الثروة الى الكمال ودلّهم على طريقهِ (متى ١٩ : ٢١) كما انهُ أثنى على ارملة ألقت فلسين في الخزانة (لوقا ٢١ : ١ — ٤) كسر من زهو الفريسيين المتكبّرين واطرأ تواضع العشّار (لوقا ١٧ : ١٠ — ١٤) صنع المعجزات لعلاج كل المسقومين ولم يشأ ان يصنع آيةً امام هيرودس ليخلّص نفسهُ بل لم يُجبهُ بكلمة منضِّلاً هزءهُ على موافقته في فضوله . دفع الجزية لجباة الدرهمَين مع كونهِ حرًّا لئلّا يشكك الناس (متى ١٧ ٢٢ — ٢٦)

فترى انَّ السيد المسيح كان مثال الكمال في سيرتهِ مع البشر كما كان قدوتهم في تُقى الله وعبادتهِ تعالى . ولو اردنا شاهدًا آخر لا يُنكر على كمالهِ في تصرّفه مع البشر كفانا بهِ في شهادات اعدائه عليه فانّهم لم يجدوا ليشكوه في محاكمهم وامام بيلاطس والي الرومان الّا شهادات زور عرف كلٌّ كذبها الّا ما صرّح هو ذاتهُ به علانيةً اعني كونهُ ابن الله

*

بقي ان نبيّن كمال السيّد المسيح في مظهر ثالث وهو حياتهُ الشخصيّة والفضائل التي مارسها في عيشته الخاصّة واعمال حياته الفرديّة فنقول :

انَّ الانسان اذا ما خالط بني جنسهِ وشخصت اليهِ ابصارهم لرفعة مقامه بينهم ربّما موّه عليهم وحلّى نفسهُ بثوب مستعار يحجب عن العيون نقائصهُ الطبيعيّة حتى اذا انجلى عنهُ الناس وعاد الى سيرتهِ اليوميّة خلع عنهُ ذاك الرداء وعرفهُ اصحابهُ كما هو بلا بهرج ولا زخرف باطل

ومن امعن النظر في حياة السيّد المسيح الخصوصيّة وجدهُ بلغ كمالها كما ادرك كمال الصلاح في خدمة اللاهوت والتصرّف مع العالم

نبذ السيد المسيح في عيشتهِ كلّ رفاهية ونعمة واختار الزهد والعيشة الشظفة . افتتح دعوتهُ بصوم عجيب دام اربعين يومًا واربعين ليلةً فشعر بالجوع . ثم شاطر تلاميذهُ مآكلهم البسيطة التي اعتادوها مع فقرهم من خبز شعير واسماك يصطادونها او كان يعيش معهم من بعض صدقات يُحسن بها اليهِ نساء صالحات ذكرهنَّ لوقا (٨ : ٣)

كان يقاسي اتعاب الاسفار فيطوف البلاد ماشياً ليبشّر فتراهُ جالساً عند بئر يعقوب وهو تعبان من السير (يوحنا ٤ : ٦) وكان لبسهُ بسيطاً خشناً ورداؤه غير مخيط (يوحنا ١٩ : ٢٣) . اما مسكنهُ فكان يختلف على اختلاف من يضيفهُ في بيتهِ حتى انهُ قال (لوقا ٩ : ٥٨) : « انَّ للثعالب اوجرةً ولطيور السماء اوكاراً واما ابنُ البشر فليس لهُ موضع يُسند اليهِ رأسهُ »

وكان مع زهدهِ وتقشف عيشهِ يأنف من كلّ كبر وجاه عالميّ ويستنكف عن كلّ عظمة وترفُّع حتى انهُ كان في وسط تلاميذهِ كالذي يَخدُم (لوقا ٢٢ : ٢٧) . بل كان يقول (متى ٢٠ : ٢٨) : « انَّ ابن البشر لم يأتِ ليُخدَم بل ليَخدُم » وقد اثبت ذلك فعلاً غير مرَّةٍ ولاسيما في العشاء السرّي حيث غسل ارجل تلاميذهِ وامكنهُ ان يجعل نفسهُ قدوةً في تواضعهِ حيث قال (متى ١١ : ٢٩) : « تعلَّموا مني اني وديع ومتواضع القلب » . ومن ثمَّ لمَّا علم انَّ الشعب ارادوا ان يختطفوهُ ويقيموهُ ملكاً انصرف عنهم للحال الى الجبل وحدهُ (يوحنا ٦ : ١٥)

وقد حملهُ تواضعهُ الى الطاعة مع كونهِ هو الربّ والسيد بل اطاع في حياته وموته كما قال الرسول (فيليبي ٢ : ٣) عنهُ انهُ « اذ كان في صورة الله لا يعتدُّ مساواتهُ لله اختلاساً اخلى ذاتهُ آخذاً صورة عبدٍ . . . فوضع نفسهُ وصار يطيع حتى الموت موت الصليب »

لكن ذاك التواضع الذي التحفَ ابنُ الله بشواعرهِ لم يكن ليثنيهُ عن بذل نفسه لاجل البشر . فحينما سرت رأيتهُ قدوةً لذاك التفاني العجيب في سبيل حاجات الجموع ومداواة كافَّة اسقامهم حتى ان كلًّا منهم كان يستطيع تكرار آية الرسول القائل (غلاطية ٢ : ٢٠) : « أحبَّني ابنُ الله وبذل نفسهُ لاجلي » كما ان الربّ يسوع امكنهُ ان يعرض نفسهُ كمثال التجرُّد وجحود النفس حيث قال (متى ١٦ : ٢٤) : « من اراد ان يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبهُ ويتبعني » وقد ختم حياتهُ بتقدمة نفسه للموت عن احبَّائه وهي اقصى حدود المحبَّة كما قال (يو ١٥ : ١٣) . ووضع نفسهُ من تلقاء ذاته دون ان يغصبهُ على ذلك احد وهو القائل (يو ١٠ : ١٧ — ١٨) : « من اجل هذا يحبُّني الآب لاني ابذل نفسي لآخذها ايضاً ليس احد يأخذها مني ولكنني ابذلها باختياري ولي سلطان ان ابذلها ولي سلطان

أن آخذها ايضاً ». فاتمَّ طوعاً ما فاه به قيافا رئيس الكهنة بروح النبوة (يو ١١ : ٥٠) قائلًا : « أنكم لا تعرفون شيئاً ولا تفتكرون انهُ خير لكم ان يموت رجل واحد عن الشعب ولا تهلك الامَّة كلها » ولذلك تراهُ سائرًا الى الموت بكل طيب قلب دون ان يصنع شيئاً لينقذ نفسهُ من تلك العذابات والاوجاع التي كانت تنتظرهُ وكان سبق فوصفها لتلاميذهِ في كلّ تفاصيلها (متى ٢٠ : ١٩)

فهذا الزهد وهذه الضعة وتلك الشهامة العجيبة كلّ ذلك كان مقروناً بطهارة وقداسة حياة ليس وراءها من مزيد . وكان يشعر تلاميذهُ بذلك البرّ العظيم فيصرخون كبطرس (لو ٥ : ٨) : « أخرج عني يارب فاني رجل خاطئ » او كقائد المئة (متى ٨ : ٨) : « يا رب لستُ مستحقًّا ان تدخل تحت سقف بيتي » . ومع ما كان الفرّيسيُّون والكتبة يخترعونهُ من الشكايات الباطلة في حقه لم يخفْ ان يحتجّ على كذبهم علانيةً ويفحمهم بقوله (يو ٨ : ٤٦) : « مَنْ منكم يثبت عليَّ خطيَّة » . فهذا امري كلام لا يقولهُ الَّا من وثق من نفسه تام الفضل والبرارة لاسيما بازاء قوم معادين يطلبون ادنى هفوة ليهلكوه . بل اقرُّوا بكمالهِ في كل اعمالهِ غير مرَّة كقولهم (مرقس ٧ : ٣٧) : « لقد احسن فيما صنع » ومثل ذلك قال تلميذا عمواس (لو ٢٤ : ١٩) : « كان يسوع الناصريّ رجلًا نبيًّا ذا قوَّة في العمل والقول امام الله والشعب كلّه » وكقول صاحب سفر الاعمال (١٠ : ٣٨) : « اجتاز يسوع يُحسن الى الناس »

فليقم الآن كل مُنصف وليقُلْ لنا أيوجد في العالم ام وُجد قطّ مثالٌ من قداسة الحياة وطهر السريرة كمثال السيّد المسيح . نعم انَّنا لا ننكر انَّهُ وُجد احياناً قدّيسون عظام شهدت التواريخ على سامي فضلهم ولكن اين ذلك من قداسة السيد المسيح التي من فيضها نالوا ومن نورها اقتبسوا وان كانوا اضحوا قدوة لغيرهم بحسن اعمالهم فما ذلك الَّا لكونهم تعقَّبوا آثار المسيح فكلّ منهم يقول كبولس الرسول (١ كور ٤ : ١٦) : « اسألكم ان تقتدوا بي كما اقتدي انا بالمسيح » . ولولا المسيح لأثخنكم عبء خطيئتهم فيصرخون كالرسول عينهِ (روم ٧ : ٢٠) : « الويل لي انا الانسان الشقيّ من ينقذني من جسد الموت هذا »

والحقّ يقال ان يسوع وحدهُ المثال الكامل الخالي من كلّ نقص الذي اعطاهُ

الله للبشر ليقتدوا به ويسيروا في قلوبهم فضائله . فانَّ الآب السماوي اذ أسمع صوتهُ من الغمام قائلاً « هذا هو ابني الحبيب » اردف ذلك بقوله « اياه اسمعوا » لراد به على ما شرحهُ الآباء ان نُصغي الى تعاليمه ونقتفي بآثاره . لانَّ الله يوم الدين سيميِّز مختاريهِ على حسب الشبه الذي يراهُ بينهم وبين ابنه الالهي كما قال الرسول (روم ٨ : ٢٩) : « انَّ المختارين الذين سبق الله فعرفهم سبق فحدَّد ان يكونوا مشابهين لصورة ابنهِ حتى يكون بكرًا ما بين اخوة كثيرين »

ثم انَّ الربَّ يسوع نفسهُ لم يأت في حياتهِ كلَّ ضروب الفضائل الَّا لنقتدي بها فيقول لنا كما قال لتلاميذهِ (يو١٣: ١٥) : « اني اعطيتكم قدوةً حتى انَّكم كما صنعتُ انا بكم تصنعون انتم ايضاً » وكما قال ايضاً (متى ١٧ : ٢٠) : « تعلَّموا مني . . . »

وقد جرت الكنيسة على هذا التعليم فانَّها في كلِّ اسرارها وكلِّ ارشاداتها وكل عنايتها لا تنوي الَّا امرًا واحدًا ان تطبع صورة المسيح في اولادها فتقول لكلَّ منهم قول الرسول (غلاطية ٤: ١٩) : « يا بنيَّ الذين اتمخَّض بهم مرَّةً أخرى الى ان يتصوَّر المسيح فيهم »

فلذلك ترى انَّ شخص المسيح منذ ظهر في جبال يهوديَّة قد اضحى قُبلة كلِّ الشعوب . اليه توجَّه كلّ النفوس بأبصارها لتقتدي به بحيث يجوز ان يقال ان كل ما ظهر من الصلاح منذ عشرين جيلًا على الارض اصلهُ المسيح . وقد اقرَّ بذلك احد كبار الزنادقة انفسهم . قال فولتير إمام الملحدين: « ليس بين كلّ الحكماء الاقدمين رجلٌ واحد امكنهُ ان يؤثّر في آداب الذين يقطنون في حيّه قريباً منهُ امَّا السيد المسيح فانَّهُ اثَّر في العالم كلّه (١ »

فهذا هو المثال الذي قصد الاقتداء به الحواريون لمَّا طافوا العالم وتجشَّموا كل الاخطار ليقيموا دعوتهُ . هو المثال الذي نصبهُ امام عيونهم الوف الالوف من الزهاد في البراري والقفار فنبذوا الغنى واللذَّات وعاشوا في جسم بشريّ عيشة ملائكيَّة .

---

١) هذا هو كلامهُ في الحرف Aucun sage n'a eu la moindre influence sur les mœurs de la rue qu'il habitait, et Jésus-Christ a influé sur le monde entier (Voltaire)

هو المثال الذي سند الشهداء الذين أدَّوا للمسيح شهادة الدم في كل انحاء المعمور فساروا الى الموت سيرَهم الى ألذ الولائم واشهى المسرَّات . هو المثال الذي استنزل الملوك عن عروشهم لينقطعوا الى اعمال البر . هو المثال الذي يريد التشبُّه به ذاك العدد الموازي لكواكب السماء من الرهبان والراهبات الذين يتفانون في تلطيف كل الاسقام البشرية من معالجة امراض شتى كالسلّ والبرص والجنون وخدمة العجزة وحضانة اللقطاء وتربية الايتام وتهذيب الناشئة

وكما كان المسيح مثال كل الازمنة هو ايضاً قدوة كل اطوار حياة الانسان فالى يسوع الطفل ينظر الصغير في حجر والدته وباسمه يلهج اذا تحرَّك لسانه وحذوَهُ يحذو اذا بلغ سنَّ الرشاد . ثمَّ يسلك مناهجهُ اذا ترعرع ويأتسي بامثاله اذا بلغ أشُدَّهُ وخاض غمرات الحياة وساوَرَتهُ خطوب الزمان . يجد الفقير فيه اسوةً في ضنك عيشه وبنوره يستضيء الغنيّ لئلا يجعل في الغنى أملهُ . العَمَلة يقتفون معالمهُ ليقدّسوا اشغالهم اليوميَّة . والائمة يهتدون به ليحسنوا رعية مرؤوسيهم ويعاملوهم مثلهُ بالرفق والرحمة والاناة . آثارَهُ يقتصُّها الرهبان في زهدهم . وعلى مثاله يجاهد المضطهدون والمجرَّبون من العالم والشيطان . تحت كنفه يدخل الوليد في ميدان الحياة وبين يديه يسلّم المدنفون على الموت ارواحهم بكل ثقة

ومهما بحث الانسان على سرّ هذه القوَّة العجيبة لا يجدها الَّا في لاهوت يسوع فلو كان المسيح انساناً محضاً لأصبح اسمهُ منذ قرون عديدة نسياً منسيًّا وتراهُ كل يوم يزداد عظمة وارتفاعاً في اربع خوافق العالم اذ « ليس بأحدٍ غيره الخلاص لانهُ ليس اسم آخر تحت السماء ممنوحاً للبشر به يخلصون » (اعمال ٤ : ١٢) . فلا بُدَّ « ان تجثو لهُ كلُّ ركبةٍ ممَّا في السماوات وعلى الارض وتحت الارض ويعترف كلّ لسان انَّ الرب يسوع المسيح هو في مجد الله ابيه » (فيلبي ٢ : ١٠-١١) (لهُ بقيَّة)